الحد الأوسط
بين من فرط وبين من أفرط

لفضيلة العارف بالله تعالى

سيدى الشيخ / محمد الحافظ التجانى المصرى

تأليف سنة ١٣٤٧ هـ الموافق سنة ١٩٢٨ م

إذا أردت أن ترى للآراء والمذاهب والأديان على اختلافها أنصاراً فيمم شطر مصر ، تلك الديار التى يطمع للسيطرة عليها كل ذى أمل فى امتداد سلطانه وتثبيت دعائم ملكه ، تلك البلاد التى حُرمت طويلاً من التمتع بحقوقها وسلبت هناءتها وطُعنت فى نفسها ، حتى أصبح العقلاء من أهليها ينظرون إلى الداء السارى فى قلبها وأطرافها نظر الطبيب الذى قل رجاؤه فى مريض يحنو عليه الحنو كله .

فى هذه البلاد ترى كل شعار ، ويمكنك أن تجد لكل عقيدة ورأى دعاة ، فهى مجمع المذاهب وسوق الآراء .

فى إحدى بلادها الواقعة على شاطئ النيل حدائق غناء ، أمها فى يوم من أيام الربيع جماعات من كل مذهب ، مروا بمياه النيل وجلسوا فى إحدى هذه الحدائق ، بينما السماء صافية ويسمع لخرير المياه دوى متواصل يتجاوب مع صداه فى ذلك الفضاء البديع ، والطيور كل يغرد بلغته ، لا سجن يقسرها ، ولا مانع يحول دون التصريح بما تراه سواء كان أسى الشكاية أو طرب الحبور ، آنق الجميع هذا المشهد ، وراقهم الجمال الفطرى الذى أثار من عواطفهم وملك عليهم قلوبهم ، فلم يتمالك كل منهم أن لاح عليه أثر الجذل بهذا الحسن المقروء على صحائف الكون ، وكأنهم نسوا ما بينهم من اختلاف فى الأجناس والمذاهب ، فخفيت أمام هذا الاستحسان كل نواحى العصبية ، فلم يبق إلا الأخوة فى الاندراج تحت راية هذا الجمال المطلق والكمال المحض المفاض على سائر الموجودات ، فتعارفوا تحت لوائه .

وقال أحدهم وكأنه كان معبراً عن شعور الجميع معرباً عن صميم ما أكن فى أفئدتهم : هل لكم معشر الرفاق أن نرعى صالح الإنسانية ، فننظر نظرة علمية بعيداً عن محض التقليد ، وها هى ذى أرواحنا قد تعارفت وانغمست فى هذا البحر من الحسن الذى لا يختص بمذهب دون مذهب ، ولا دين دون دين ، ونسير سير أخوة يحب كل منهم الخير لأخيه كما يحبه لنفسه ، ويحرص على سعادته الحرص كله ، باحثين عن الحق حيثما كان ، لا نخطوا خطوة إلا إذا قام

عليها الدليل القطعى الذى لا يمكن أن يطرأ عليه ريب فى يوم من الأيام ، حتى نفصل فى الخلافات العالمية فى أصول العقائد والمذاهب ، منصفين لا ننكر حقيقة ولا نقطع برأى أيا كان قائله إلا إذا قام عليه البرهان اليقينى .

فأجابه أحد الجماعة : إنى لموقن أنك ما نطقت بلسانك وأمنيتك فحسب ، وإنما نطقت بما ترتاح إليه القلوب المنصفة التى تبتغى اليقين ، وليس هذا اللسان بغريب على أحد من بنى الإنسان ، ما لم يلغ العقل الذى اختصه به ورفعه عن رتبة باقى الحيوانات ، ويترك التحليل والبرهان .

علام نفكر برؤس غيرنا ؟ ولم نذهل عن المواهب المودعة فى حقائقنا ؟ أى فرق بين ذلك الانقياد ـ سواء وافق البرهان أو لم يوافق ـ وبين انقياد الدواب إلى حيث لا تعلم ؟

عفاء على إنسانيتنا ووجداننا وعقولنا إن لم نستعملها فى إدراك الحقائق ، مستقلين أسمى استقلال ، منزهين عن الميل إلى ما يصم ويعمى عن إدراك جمال الحقيقة على ما هى عليه ، هلم نُزل ذلك اللثام الذى ضل فيه قوم كثيرون عن كنه الأمر الذى قضى علينا أن نعيش فيه .

وقال ثالث : إن حياة فى سجن هذه الظواهر ، لا يدرى المرء فيها من أين أتى ولا كيف أتى ولا لم هو موجود ولا ما يراد به وماذا عسى أن تكون نهايته ، لحياة غير هنيئة لما عسى أن يكون فيها من خطر ، وإنى أصارحكم معشر الرفاق إنه ليخالجنى أن الموت ربما كان أفضل من مثل هذا العيش المرير الذى يعيش فيه المرء على شك فى حياته وبعد مماته .

وإن الإنسان إما أن يكون من فريق حلت لدى أفئدتهم هذه الحقائق بما لا يتطرق إليه احتمال ، أو من فريق لم تحل لديه وهؤلاء إما غافلون أو متغافلون ، أو من فريق ليسوا بغافلين ولا متغافلين لم تحل لديهم بعد وهم فى سبيل البحث عن حلها .

أما الذين حلت لهم هذه الحقائق بيقين فهنيئاً لهم ، قد استراحوا وكانوا على بينة من أمرهم ، حسبهم أنهم العلماء والحكماء .

وأما الغافلون فأولئك هم الأموات الذين لا يقدرون الحياة قدرها ، ولا يعنون بالتبعة الملقاة على عواتقهم ، وإن أحدهم ليتقى ما ربما يدركه من الأخطار الهينة ، وانظر كيف غفل عما لا يدرى لعله سبب فى هلاك لا يحيط به عقله ، يأكل ويشرب وينام ولا يسعى فى إزالة ذلك الظلام الدامس الرابض على عين فؤاده ، حتى يرى النور المكنون السارى فى الآثار .

وأما الذين لم يغفلوا ولم تحل لهم هذه الحقائق ، فإذا ساروا على الأصول الصحيحة فهم أجدر أن يصلوا إلى الحقيقة ، أولئك هم أبناء السبيل ، سبيل المعرفة .

وأين منها استكانة ذوى الغفلات ، وإن حسبوها راحة إلا أنها راحة البلادة والعدم ، والميت لا يشعر بتقطيع السيوف ، والحى يحس بوخز الإبر .

والباحثون هم الذين يرجى منهم الخير ومنتهاهم أن يكونوا من الفريق الأول الهداة الأدلاء ، وإنى أقترح أن نشرع فى البحث الآن ، فإن هذه مجموعة قد برئت من ذلك الموت فهى صالحة للوصول إلى الحقيقة ، ولا أرى من داع لتأخير هذا الأمر الذى هو أساس كل دعامة وكمال .

فقال آخر : ولم لا نؤجل البحث قليلاً حتى يشترك معنا غيرنا من ذوى الدراية والفطنة ويكون ذلك أدعى لكمال تحقيق ما نريد بحثه ، وإن من رأيى أن نرسل إلى من فيه هذا الاستعداد فى مختلف الأقطار دعوة عامة ليدرسوا هذا الأمر فى هدوء وسكينة ، ويستوعب كل منهم حججه ودلائله مستقلاً ، ولعل هذا ينتج لنا ولغيرنا أحسن النتائج .

فأجابه رفيقه المتقدم : إننا لا شك سنبحث ، وكل منا فى أعظم استقلال من الرأى وأوسعه ، فسواء كانت المجموعة تشمل كل بنى الإنسان من أول عهدهم حتى الآن أو عدداً قليلاً ، متى كان استعداده يؤهله لنتيجة مرضية ، خصوصاً والدلائل التى هى عماد أبحاثنا هى الدلائل اليقينية التى يستوى فيها الفرد والكثير .

إن الناس قاطبة لو قالوا : إن جزء الشئ يساوى كله ، لصح لأى فرد أن يسفه أحلامهم جميعاً ، وحيث إن هذا ميزاننا الذى نزن به فى تحقيقاتنا فلا أرى من حاجة إلى تأجيل هذا الخير

ولسنا ندرى أولئك الذين سيفدون علينا إن كان لديهم من الإخلاص لنا وللبحث مثل ما لـدى كل منا لرفيقه ، وهل أخرجوا العصبية الهوجاء وحلوا كمامة التقليد وسئموا الغطاء الذى يضعه الأسلاف على قلوبهم حتى يسلبهم استقلالهم الفكرى للوقوف على الحقيقة ناصعة جلية عاريـة عن الحجب والأستار .

ألا فلنشرع من هذه اللحظة فى البحث .

فتناول الجماعة الرأى ، فقال أحدهم : إنى أرى رأياً أرجح إنكم ستوافقون عليه جميعـاً ، هـو أن نجمع بين الرأيين ، فنشرع فى البحث معاً ، ونرسل الـدعوة بهـذه الـشروط إلى المـلأ ، بحيـث يطرح كل من يدخل هذه الحديقة ـ التى ستكون نعيم العلم والمعرفـة والـيقين ـ عنـد بابهـا كـل تقليد ، وليعلم أنه لن يقبل أن يدلى برأى فى أمرنا إلا بدليل ، ليس للاحتمال ـ عـاجلاً أو آجـلاً ـ فيه نصيب ، ومن يصل إلينا من مختلف الأقطـار مـن أئمـة البحـث لـه أن يطلـع علـى سـجل أعمالنا ومذكراتنا ، ولكل أن ينقدها ما شـاء كمـا شـاء ، ومادمنـا قـد سـرنا فـى طريقنـا علـى اليقينيات فلسنا نخشى النقد أبداً .

فاتفق الجماعة على ذلك ، وحاز هذا الرأى غاية الاستحسان .

فقال بعض الجماعة : فهلا يصح أن نضع أسس البحث ، وبعد الفـراغ منهـا نكتـب الـدعوة لكافة البشر ونرفق بها تلك الأسس لتكون مثلاً يسيرون عليه فى بحثهم ، فإننا نخـشى أن يرتكـز أحد منهم على أسس ظنية ، وإذ ذاك نضيع وقتاً ثميناً فـى بيـان خطـأه ، فتقريبـاً للوقـت علينـا وعليهم لا نرسل الدعوة إلا بعد وضع تلك الدعائم .

فأجاب آخر : إنى أرى أن نطلق لهم الحرية فى وضع الأسس التى يختارونها ، وماذا علينـا أن يؤسس أحدهم مباحثه على أمور ظنيـة فنردهـا ، وبـذلك يتـضح مقـام البحـث علـى الأسـس القطعية لمن لا يقدر القطعيات قدرها ، فلندع بنى الإنسان أحراراً ، يؤصـلون سـيرهم إلى الحـق على ما يشاءون ، غير أننا ننبههم إلى أن زمن الأوهام والخضوع لأفكـار النـاس بمحـض التقليـد

قد أتى عليه ، وأن آراء الرجال ومبادئهم مهما عظموا ـ ما لم يصحبها الدليل اليقينى ـ لن تكون لها القيمة العلمية التى ننشدها والتى أسسنا بحثنا عليها ، فلن نعتد بها بحال ، وما لم ينتج لنا فى أبحاثنا العلم اليقينى ـ بحيث لا مجال للريب فيه بوجه من الوجوه فى أى جيل من الأجيال ـ فلن نبرح فى شك من علمنا بحقيقة هذا الوجود ومصدره ، ولن نزال فى ظلمات الريب فيما نحن عليه فى عقيدتنا وعلمنا ، ولا نأمن أن يكون الحق فى الواقع على غير ما نرى ، وهذا وحده عذاب أليم ، فكيف بما عسى أن يترتب على ذلك مما لا نعلم مادامت حياتنا تكتنفها ظلمات الشكوك الدامسة ؟ ولا أدرى كيف يستطيع عاقل أن يعيش فى حياة هى ظلام أسس على ظلام ؟

فاستقر الرأى الأخير على أن يتركوا الناس على حريتهم فى البحث تأصيلاً وتفريعاً ، وعُهد إلى قوم انتخبوهم من بينهم أن يكتبوا نص الدعوة وتُعرض على الجميع ليروا رأيهم فيها ، ولكل الحق فى تغيير ما لا يلائم المبادئ القطعية .

البراهين

والإدراك الخاص والإدراك العام

وشرعوا فى البحث ، واتفقوا على أن يحرروا ما يصح أن يكون دليلاً يقينياً ، وما لا يصح .

تعريف الدليل اليقينى :

وتعين لديهم أن الدليل هو ما تركب من قضايا ضرورية واجبة الصدق ، سواء تركب منها مباشرة ، أو من مقدمات ننتهى إليها عند الاستدلال على صحتها ، ما كان كذلك فهو دليل ، وما ليس كذلك فلا دلالة فيه .

ما يصح أن يكون دليلاً يقينياً :

وكانت نتيجة بحثهم أن انتهوا إلى الأمور التى يصح فيها قوة الاستدلال المطلوب ، وأنها كما يأتى :

١ ـ القضايا التى يجزم العقل بصحتها بمجرد تصور طرفيها وملاحظة النسبة بينهما ، كقولنا : كل الشئ أعظم من جزئه ، والواحد نصف الاثنين ، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ، كشئ موجود ولا موجود ، وتُسمى : أوليات وبدهيات .

٢ ـ قضايا يجزم العقل بها لا بمجرد تصور طرفيها بل بوسط لا يغيب عن الذهن عند تصور الطرفين .

كقولنا : الأربعة زوج ، فإن العقل لم يجزم بذلك بمجرد تصور الطرفين بل بوسط تصوره الذهن عند تصور الزوج والأربعة ، وهو الانقسام بمتساويين ، فإن العقل عند تصور الزوج والأربعة يتصور الانقسام بمتساويين ، فحصل عند تصوره قياس وهو أن الأربعة منقسمة بمتساويين ، وكل منقسم بمتساويين زوج فالأربعة زوج .

وكقولنا : الأشياء المتساوية إذا أضيفت إليها أشياء متساوية كانت النتائج متساوية ، والأشياء المتباينة إذا أضيفت إليها أشياء متساوية كانت النواتج متباينة ، فإن العقل يحكم هذا الحكم بواسطة لا تغيب عن تصور ذلك ، وهى عدم انضمام كمية إليها تزيل ذلك التساوى ، فكان لديه قياس هذه صورته : الأشياء المتساوية المضاف إليها أشياء متساوية لم يطرأ عليها ما يغير هذا التساوى ، وكل ما هذا شأنه لا يزال التساوى فيه باقياً ، وكذلك يقال فيما بعده .

وتسمى هذه قضايا قياساتها معها ، لأنه عند تصور الطرفين يكون الوسط متصوراً ، فيحصل القياس من تصور الطرفين والوسط ، وهى فى حكم الأوليات بناءً على أن الوسط لما لم يفارق تصور الطرفين فكأنه لا احتياج هناك للعقل إلا إلى تصور الطرفين .

٣ ـ المشاهدات أو الحسيات ، وهى قضايا يجزم العقل بها ، لا بمجرد تصور طرفيها بل بواسطة الحس الظاهر من غير تكرار ولا حدس ولا إخبار جماعة ، وإلا كانت من قبيل المجربات أو الحدسيات أو المتواترات ، كقولنا : الشمس طالعة وهى مضيئة ، والنار حارة ، أو بواسطة الحس الباطن كاعتقادنا بأن لنا فكراً وجوعاً وشبعاً ورياً وظمأ .

ويسمى هذا النوع وجدانيات ، وقضايا اعتقادية ، ومشاهدات ، وحسيات .

ويعد منها ما نجده بنفوسنا ، لا بآلائها ، كشعورنا بذواتنا ، وبأفعال ذواتنا ، وإننا من الرجال لا من النساء ، وتسمى حسيات لأن الحاكم هو العقل لكن بواسطة الحس ، فيسمى الحس حاكماً لأن الحكم بسببه .

الحس لا يفيد إلا حكماً جزئياً ، وحكمه الجزئى صادق متى كانت الحواس صحيحة لا خلل فيها وتوفر شروط الحكم ، كالأذن تسمع بواسطة الهواء ، فإذا فرغ الهواء بينها وبين الصوت فلا تسمع ، وقس على ذلك .

والحكم بأن كل نار حارة ، وكل عطر طيب الرائحة ...إلخ ، إنما هو حكم نفسى أعدت الحواس النفس إلى إدراكه بواسطة تكراره لدى الحواس المذكورة فى كثير من الجزئيات .

٤ ـ قضايا يجزم العقل بها بواسطة الحس ، وهو هنا حس السمع ، مثل أن يخبر عن محسوس يمكن وقوعه جمع كثير يجزم العقل بامتناع تواطؤهم على الكذب ، كعلمنا بوجود مكة وأوروبا وإن لم نرها .

وإنما اعتبر كون الخبر عن محسوس لأن غير المحسوس لا يفيد خبر الجمع الكثير عنه الجزم ، كما فى القضايا الهندسية والحسابية ووحدانية الصانع إلى غير ذلك ، واعتبر أن يكون ممكن الوقوع لأن ما يستحيل وقوعه لا يحصل الجزم عن وقوعه ، وإن كان الخبر عن جمع كثير غير محصور الكثرة .

واعتبر جزم العقل بامتناع تواطؤهم على الكذب ، إذ لو لم يجزم العقل بامتناع تواطؤهم على الكذب لا يفيد خبرهم الجزم .

ولابد فى هذه القضايا من تكرار السماع ومن قياس خفى ، أى قياس مترتب لا يشعر به صاحب الحكم مع حصوله .

وقرره بعضهم بأنه خبر عن أمر ممكن محسوس ـ يدرك بالحس ـ أخبر به جماعة لا يمكن

تواطؤهم على الكذب ، وكل خبر كذلك فهو صادق ، وأن تكون مستندة إلى المشاهدة ، فيكون الحاصل من التواتر علماً جزئياً من شأنه أن يحصل بالإحساس ، فلذلك لا يكون من مسائل العلوم العقلية لأنها قضايا كلية ، وإن جاز وقوعه فيها من طريق المبدئية كما فى قولنا : محمد ادعى النبوة وأظهر المعجزة ، وكل من هذا شأنه فهو نبى ، فإن صغراه من المتواترات ، وأما الكبرى ـ وكل من هذا شأنه فهو نبى ـ فهى من قضايا العقل .

٥ ـ المجربات : وهى ما يحكم بها العقل بواسطة الحس مع التكرار ، ولابد مع ذلك من قياس خفى ، وهو أن الوقوع المتكرر على نهج واحد دائماً أو أكثرياً لم يكن على سبيل الصدفة والاتفاق بل لابد أن يكون هناك سبب ، وإن لم يعرف ماهية ذلك السبب .

وإذا علم حصول ذلك السبب حكم بوجود المسبب قطعاً ، وذلك مثل حكمنا بأن الضرب بالخشب مؤلم ، وبأن شرب السم الكثير مميت .

٦ ـ الحدسيات : وهى قضايا مبدأ الحكم بها حدس قوى يزول معه الشك ، وما لم يكن الحدس بهذه المرتبة لا يكون من القطعيات .

ومعنى الحدس : السرعة فى السير ، ولذا عرفه البعض تسامحاً بسرعة الانتقال من المبادئ إلى المطالب ، فهو سنوح المطلوب مع دليله للعقل دفعة واحدة ، فليس فيه حركتا النفس من المطالب التى لم يذعن بها إلى أدلتها ، ثم انتقالها من هذه الأدلة إلى تلك المطالب على وجه الإذعان والتصديق ، ولا يكون إلا للأذكياء أو إلى ما للنفوس المستعدة له .

كقولنا : الصانع المتقن لصنعته الدقيقة عالم بها ، إذا جاء ذلك للعقل مع أدلته دفعة واحدة ، إذ من المعلوم أن إجادة صنع جزء من المصنوع لاحتياج جزء آخر إليه فى القيام بالميزة التى خص بها وإحكامه صنع تلك الأجزاء إحكاماً يؤدى إلى الوصول لما قصد منها يدل على أن ذلك ليس ناشئاً إلا عن علم بتلك الأشياء ، ولا ينكر ذلك إلا مكابر .

ولابد فيها من تكرار المشاهدة والقياس ، فهى كالمجربات ، وليس بينها من الفروق إلا أن

ماهية السبب هنا معلومة ، بخلافها فى المجربات .

٧ ـ الوهميات فى المحسوسات ، فإن حكم الوهم فى الأمور المحسوسة صادق ، والوهم قوة جسمانية للإنسان بها يدرك الجزئيات المنتزعة من المحسوسات ، فهى تابعة للحس ، فإذا حكمت على المحسوس كان حكمها صحيحاً ، نحو : كل جسم له جهة ، فإن العقل يصدقه فى تلك الأحكام ، ولذا كانت العلوم الهندسية والجارية مجراها شديدة الوضوح لا يكاد يقع فيها اختلاف الآراء كما وقع فى غيرها ، بخلاف حكمه على غير المحسوسات كالمجردات والمعقولات الصرفة فإنه إذا حكم عليها بأحكام المحسوسات كان حكمه هناك كاذباً ، كحكمه بأن كل موجود لابد أن يكون فى جهة وفى مكان وذلك لأن الوهم ينتزع أشياء من المحسوسات إذا حكم بتلك المحسوسات على غيرها من الأجسام التى لم تحس كان حكمه صحيحاً بخلاف ما لو حكم بها على ما ليس بجسم ، والغرض من البرهان معرفة الحقائق على ما هى عليه فى الواقع بحيث لا تكون إلا كذلك .

والعمدة فى العلوم من هذه المبادئ باعتبار كونها حجة على نفس الإنسان وعلى غيره أيضاً :

١ ـ البديهيات ، أى :

أ ـ الأوليات إذ لا يتوقف فيها إلا ناقص الغريزة ، كالبله والصبيان ، أو مدنس الفطرة بالعقائد المضادة للأوليات كما لبعض الجهال والعوام .

ب ـ والقضايا الفطرية القياس لكونها فى حكم الأوليات .

٢ ـ ثم الحسيات :

والمراد بها ما للحس فيه مدخل ، فيتناول التجريبيات ، والمتواترات ، وأحكام الوهم فى المحسوسات والحدسيات والمشاهدات .

أما البديهيات فمطلقاً ، وأما الحسيات فإذا ثبت الاشتراك فى أسبابها ، أى فيما يقتضيها من تجربة أو تواتر أو حدس أو مشاهدة ـ أى إدراك بإحدى الحواس الظاهرة أو الباطنة ـ فإن

مشاهداتنا ليست بحجة على غيرنا ، ما لم يكن له مثل شعورنا وما شعرنا به .

وقد أنكر قوم الحسيات ، وآخرون البديهيات ، وفريق أنكروا الأمرين معاً ، ولا أظننا نعنى برد عليهم ، فإن الحكم بالحس ـ وإن أخطأ فى بعض مواطن لعدم التدقيق فى الحكم ـ كرؤية الظل ساكناً وهو فى الحقيقة متحرك ، إنما كان ذلك لأن حركته فى غاية الدقة ، وليس فى حواسنا وحدها طاقة إدراك هذه الحركة الدقيقة لأول وهلة .

وكذلك تغير الحديد والذهب والأشياء الصلبة ، فإن العقل يحكم بأنها فى هذه اللحظة قد تغيرت ، بخلاف الحس فإنا نراها لم تتغير ، وإنما أدرك العقل ذلك من ملاحظة أنها تتغير بعد قرون مثلاً ، فلو كانت فى كل لحظة لا تتغير لكان تغيرها فى كل لحظة صفراً ، وصفر زائد صفر مهما تكرر لا يكون المجموع إلا صفراً ، وكان ذلك يقتضى أن لا تتغير مهما مرت عليها الأعوام ، وحيث إنها تتغير بعد مدة طويلة إذاً فلابد أنها تتغير فى كل لحظة تغيراً ما ، وإن كان دقيقاً لا يدرك بمجرد الرؤية فهذا لا يبرر الحكم بخطأ الحس فى كل شئ ، حتى فى الواضحات القطعية كعلمنا أن النهار نهار ، وأين هذا من ذاك ؟ والبون بينهما شاسع .

ومن المعلوم الواضح أن حكم الحس لم يخطئ فى كل المواطن ، فبعضها نحن آمنون فى الحكم فيه من الخطأ والتشكيك فيه لا يعد شيئاً مذكوراً كالمثل المتقدم وأننا رجال ولسنا بنساء ، وأننا موجودون أحياء ولسنا بمعدومين ولا أموات ، وأنا هنا ولسنا فى سيبريا .

وخطأ بعض العقلاء فى إصابة الحكم فى أمر عقلى لا يبرر عدم الثقة بكل ما يحكم به العقل حتى فى البديهيات التى جرد أطرافها عن كل ما لا مدخل له فى ذلك الحكم ، مع تعلقها على الوجه الذى هو مناط الحكم فيما بينها ، وعلم ذلك علماً لا شك فيه .

فإننا جازمون أن بعض ما يحكم به العقل واجب التسليم ، ولا نرتاب فى أن ٥ X ٦ = ٣٠ وأن ١٠٠ + ١٠ = ١١٠ ، وأن جزء الشئ لا يمكن أن يساوى كله ، وعلمنا بذلك علم يقينى لا يمكن أن يتطرق إليه ريب وإن أخطأ فيه وفى غيره الناس قاطبة .

وإننا إذا حللنا مسألة حسابية أو هندسية أو جبرية وسرنا فيها سيراً صحيحاً حتى وصلنا إلى النتيجة الصحيحة فخطأ غيرنا لا يمكن أن يكون حجة على أننا مخطئون ، ولا يمنع الجزم بإصابتنا ، والمشكك فى صحة النتيجة لا يكون نصيبه منا إلا الترك .

ومتى كانت دلائلنا فى الحسيات والعقليات من هذا القبيل ، فكيف لا يكون ذلك يقيناً ؟

ولسنا هنا بصدد الرد على المنكرين للحقائق المحسوسة أو البديهية والشاكين فيها ، إلا إذا شككنا فى أن علمنا بوجودنا وحياتنا لا يقبل التشكيك قال قائل ما قال ، وإن احتاج أحد إلى إثبات مثل هذه الواضحات فلا يمكننا أن نقول عنه إلا أنه مريض أو معاند يريد التشكيك فيما يعتقده حقاً لا غير ، وينبغى أن نضن بزمن نحن فى حاجة إليه من أن نضيعه فى بيان الواضح ، والطريق لتعريف هذا الصنف لا يكون إلا بالطريق العملية وهى طريقة التقرير ، ومن ذلك أن أحد الفلاسفة سأل بعض العلماء : ما دليلك على أنى موجود ؟ فأجابه : أن أضربك بهذا الشيش ، فإن كنت موجوداً فإنه يضرك ، وإن كنت معدوماً فإنه لا يضر المعدوم .

ولا شك أن من أنكر هذه الحقائق ـ إن لم يكن ذلك لمرض اعتراه ـ فهو من أدل الأشياء على سوء النية فى البحث .

بديهة الوهم

المحَار ـ المُحال

قد يشتبه عند بعض الناس جزم الوهم بجزم العقل ، فيرى أموراً أنها من البديهيات ، ثم يتبين له بعد ذلك خطأه ، فهذا الجزم لم يكن جزم العقل وإنما هو الوهم فإنه تابع للحس ، فينتزع أشياء من المحسوسات ، فإذا حكم بتلك المنتزعات على غير المحسوس قياساً على المحسوس فإنه مخطئ ، كما يعتقد كثير من العوام أن كل موجود يجب أن يكون جسماً أو حالاً فيه أو محاذياً له ، فإذا كان هذا يؤدى إلى مخالفة القطعيات من البديهيات التى لا يمكن أن يشك فيها بحال ككون الجزء لا يمكن أن يساوى الكل ، علمنا أن ذلك إنما نشأ عن جزم بديهة الوهم من قياسها الغائب على الشاهد ، وهذا القياس كثيراً ما يخطئ ، ولولا أن العقل والشرائع دفعت تلك القضية لعدت من القضايا الأولية .

وعلامة كذب قضايا الوهم مساعدته للعقل فى المقدمات المنتجة لنقص حكمه ، فإذا وصل إلى النتيجة نكص الوهم على عقبيه واستبعده ، والوهم يستعصى عليه ـ بما أنه تابع للحس ـ أن يتصور غير المحسوس .

هذا بخلاف حكمه على المحسوسات فإنها تدخل فى دائرته ، وكما أن المحسوسات لا يمكن أن يدرك وقوعها وكونها على صفة كذا بالعقل ، بل ما يدرك بالعين لا يستطاع إدراكه بالأذن عادة ، ولا ما يلمس يدرك بالشم ، ولا ما يشم يدرك بالذوق ، مادام هذا التركيب الإنسانى كما هو ، ولا المعقولات يمكن أن تدرك بالحس ، فكذلك ما يحتاج إلى قوة أخرى غير هذه الحواس لا يدرك إلا بتلك القوة .

ومثل ذلك : خذ لديك جرماً ما ، فإذا بحث فيه هل ينقسم إلى غير نهاية أو ينقسم إلى أجزاء محدودة ؟ فإذا فرض أنه يتركب من أجزاء محدودة ، فإن الخيال لا يزال يتصور أن أدق جزء ـ مهما فرضت دقته ـ لابد أن يقبل القسمة .

ولكن إذا نظرنا إلى ذلك من حيث الاستدلال نجد أن العقل والوهم متفقان معاً على أنه إذا تركب من عدد من الأجزاء لا نهاية له فإذا ضممنا له جرماً آخر ـ فعلى هذا الرأى ـ فالجرم الأول قبل هذه الضميمة مركب من أجزاء لا نهاية لها ، وهو مع الضميمة مركب من عدد من أجزاء لا نهاية له ، وهو من غير الضميمة جزء وبالضميمة كل ، ومعلوم مسلم بأن ما لا نهاية له قدر واحد لا تفاوت فيه ، إذ لا يمكن أكبر منه وما دونه محدود ، وعلى هذا فقد ساوى الجزء الكل وهو باطل بالضرورة لا شك فيه ، وهو محال ، وكل فرض أدى إلى المحال فهو محال .

إذاً فالفرض خطأ ، فلابد أن يتركب ذلك الجرم من أجزاء محدودة ، وإن تصور الذهن انقسامه إلى أجزاء لا نهاية لها فإن ذلك لا يمكن عملياً فى الواقع ، ولكن الوهم لا يزال يلح ويلحف ، ولا يزال يتصور إمكان انقسامها عملياً ، ولكن العقل يستريح ويجزم من حيث الدليل .

وكذلك يتصور الوهم أن تكتب عدداً لا نهاية لأرقامه ، ولكن هل ذلك ممكن عملياً أن تكتب على الأرض ثم الهواء ثم ما وراء الهواء وهكذا ، فتموت فيأتى غيرك فيكتب حتى يموت ؟ وهب أنه استمرت السلسلة ، فلا يزال العدد محدوداً فى الواقع ، إذ أنك فى أى وقت نظرت إلى ذلك العدد وجدته لا يزال محدوداً وإن تصورت الزيادة عليه .

والواضح هنا أن الإمكان فى هذا خاص بالذهن ، وأما عملياً فلا يتأتى وقوعه ، هذا مثل جزم الوهم ، وجزم البديهة .

فجزم العقل ما كان قائماً على مقدمات كلها يقينى ، وجزم الوهم ما يتعارض مع الدلائل اليقينية متى عرض عليها .

والخلاصة أن الفرق بين جزم الوهم وجزم العقل ، أن حكم الثانى يتحلل دائماً إلى قضايا لا يمكن أن يشك فيها بحال من الأحوال ، والأول يصادم ما اجتمع العقل والوهم على التسليم بالجزم بمقدماته وأنه لا يمكن أن يتطرق إليها ريب ، ولا يمكن للوهم أن يقيم دليلاً على بطلان

النتيجة التى نتجت من قياس العقل الذى يسلم الوهم بأنه صحيح لا شك فيه ، وإن لم يذعن بقبول هذه النتيجة لأنه يقيسها على ما يدخل تحت دائرته وهو الحس ، فهو يستبعدها مجرد استبعاد لا يقوم عليه دليل ولا حجة ، مع التسليم بالمقدمات التى تؤدى إلى نقيض ما حكم به .

فقال بعض الرفاق : إنى أقترح أن نختار اسماً لهذا الموطن حتى لا يشتبه علينا .

فقال بعض القوم : إن قوماً يعدونه من المغالطات ، وآخرين يسمونه حكم بديهة الوهم ، وفريق ثالث يسمى هذا الموطن " محَارا " لأن حكم العقل فيه وإن كان مبنياً على القطعيات ، بما أن الوهم يستبعده مع التسليم بالمقدمات التى تنتجه ويتحير فيه ، فهو موطن حيرة ولذلك قالوا عنه " محَارا " .

أما حكم الوهم فى هذا الموطن وإن كان يتوهم أنه بديهى ـ ولولا وضعه على الميزان العلمى اليقينى لعد من الأوليات ـ فهو يخالف القطعيات ، ويؤدى القول به إلى المحال ، وهو باطل ، وكل مؤد إلى الباطل فهو باطل ، فلا نحتاج إلا إلى عرضه على الميزان العلمى وهو كفيل بتمييزه ، فلا تشتبه المحارات بالمحالات .

فاتفقوا على تسمية ما يجزم به العقل فى هذا الموطن مع صحته " محَارا " لاستبعاد تصور الوهم له ، وهو غير ما يجزم به الوهم فإنه " محال " .

الظنيات

الظنيات قضايا يحكم العقل بها مع تجويز نقيضها تجويزاً مرجوحاً ، ومنها ما يظهر للباحثين[1] من الآراء العلمية التى يصح أن يأتى غيرهم فينقضها أو ينقضوها هم ، لا ما ثبت ثبوتاً واضحاً حتى أصبح مجزوماً به جزماً قطعياً .

ولنسم هذه الآراء التى لا يمكن أن يأتى عليها الشك " حقائق " ، ككون الأرض ليست بمسطحة وكون الماء والنار والتراب والهواء مركبة وليست ببسيطة .

ولنسم الآراء التى لم تصل إلى مرتبة القطع " نظريات " ، فإذا عدها أحد من العلماء أو مقلدوهم دليلاً قطعياً كان ذلك خطأ فى طريق البحث .

وكذلك من الخطأ البين أن ينكر أحد من العلماء أو مقلدوهم كل دعوى لم تدخل تحت الحس ، حتى كأنه لم يوجد إلا ما علموه ، وإليك حكم علماء المادة أنفسهم لا من ينتسب إليها وهو جاهل بها .

١ ـ قال لسويب[2] : " إننا لم نبلغ بعد من العلم مبلغاً يمكننا من الوقوف على أسرار الكائنات والحياة " .

٢ ـ وقال لوبون[3] : " ليس هناك شئ يسمى الجواهر الفردة ينتشر فى الفضاء ، فالجواهر المادية هى تحرف لقوة عظيمة فى انطلاقها تبديد لماديتها " .

٣ ـ وقال لومبوزو[4] : " يجب أن نحذر من إدعاء دقة العقل والاعتقاد بأن كل الناس سوانا مخرفون واهمون وأننا وحدنا العلماء ، فذلك يوقعنا ولا شك فى التخبط والحيرة " .

---

١ ــ نعنى كل باحث عن حقيقة هذا الوجود من أى دين وأى مذهب بصرف النظر عن كونه أخطأ أو أصاب .
٢ ــ هو الدكتور الأمريكى لسويب مدير قسم الفسيولوجيا بمعهد روكفلر المعروف ، قال ذلك فى خطاب ألقاه عن تجربة فى تلقيح البويضة بمادة مصطنعة لجعلها تنتج كالملقحة بالذكر .
٣ ــ هو الفيلسوف الفرنسى جوستاف لوبون .
٤ ــ عالم عصرى من علماء الفرنسيس .

٤ ـ وقال رينان[٥] : " دع العلماء يقولون ما يشاءون ، فما هى إلا خيالات تتجدد كلما كذبتها الوقائع " .

٥ ـ وقال ليتريه[٦] : " لما كنا نجهل تمام الجهل أصول الكائنات ومصائرها فلا يليق بنا أن ننكر وجود شئ سابق عليها " .

٦ ـ وقال ووتروسيه[٧] : " إن الحياة فلتة طبيعية ضد القوانين العامة للمادة ، وتعطيل وقتى لقوانينها " .

٧ ـ وقال كروكس[٨] : "ولقد ظهرت فى القرن التاسع عشر نظريتان فى ذرات المادة ، فالكهربائية والأثير وهى نظريتنا الحالية على تركيب المادة يمكن أن تظهر لنا مرضية ، ولكن إلى أى حال ستؤول يا ترى فى آخر القرن الحالى ؟ ألم تعلمنا الضرورة أن مباحثنا كلها ليست إلا ذات صبغة وقتية " .

٨ ـ وقال فلامريون[٩] : " إن هذه الادعاءات ـ يخاطب العلماء ـ ليست أمام النظر العلمى إلا هباء ، إن نيوتن كان يقول : يظهر لى كذا " .

٩ ـ وديكرت[١٠] كان يقول : " إنى أستنزل حكمكم فى هذا الفرض ، ولكن هؤلاء عباد المادة يقولون : نحن نثبت ! مع أنه ليس فيما يقولون ظل إلى البرهان العلمى ، إنكم تتجاسرون أن تعزوا للعلم هذا العبء الثقيل ، ولئن سمعكم العلم فقد حق له أن يضحك استهزاء من أموركم " .

---

٥ ــ هو الأستاذ الفرنساوى أرنست رينان من رجال العلم المعدودين أصحاب المكتشفات النافعة للبشر ، ولد سنة ١٨٣٣ م وتوفى سنة ١٨٩٣ م .

٦ ــ هو العالم الطبيعى الفرنساوى إميل ليتريه ، له مباحث فلسفية معتبرة وهو من رجال العلم الذين تفخر بهم الأمم ١٨٠١ م ــ ١٨٨١ م .

٧ ــ عالم وفيلسوف فرنسى له أبحاث مستفيضة فى الفسيولوجيا ١٧٧٦ م ــ ١٨٤٧ م .

٨ ــ هو الأستاذ وليم كروكس العلامة الإنجليزى المشهور .

٩ ــ هو كلميل فلامريون الرياضى الفرنسى الأشهر .

١٠ ــ هو العالم الفيلسوف الفرنسى دنس ديكرت من رجال البحث فى القرن الثامن عشر ، وله مؤلفات عدة تدل على مقدار اطلاعه ودقة مباحثه خصوصاً فى موضوع المادة وما وراءها ١٧١٣ م ــ ١٧٨٤ م .

١٠ ـ وقال اسباتين[١١] وهو من الفطاحل : " إن العلماء أول المعترفين فى كل فرع من فروع العلم بأنهم لم يدركوا منه إلا جزءاً محدوداً ، وإن أكثرهم تواضعاً أكثرهم علماً ، على أنهم يعترفون بأن ما حصلوا عليه للآن ليس إلا عدماً بالنسبة لما يجهلونه ، فهم مستعدون لتنقيح القوانين التى قرروها والفروض التى فرضوها " .

١١ ـ وقال باكو[١٢] عمدة الطبيعيين : " إن الحقائق الدينية تظهر لنا باطلة ، ولكن ذلك نظراً لضعف معارفنا " .

١٢ ـ وقال باتسبان[١٣] صاحب تجارب التولد الذاتى : " إننا لا نعرف كيف يتم النشوء فى الوجود ، وليس عندنا أى شئ نستند عليه فى معرفة الأطوار التى تأخذها المادة فى تحولها ، وقد اجتهد الفلاسفة والكيميائيون ليعرفوا سر هذا التطور أو هذا التغيير ولكن بلا جدوى ، فهذا الحادث من الحوادث الطبيعية التى لا نشك فيها ، ولا تصل مداركنا إلى كيفية حدوثها ، وربما تكشف لنا العلوم فى الآتى عن شئ من تلك الأسرار التى لا نزال نجهلها " .

١٣ ـ قال نيوتن فى مقدمة كتابه فى الهيئة : " إننا كصغار يلعبون على شاطئ البحر بجمع القواقع والحصى من هنا ومن هنا ، أما " أوقيانوس " الحقيقة فلم نتوصل بعد إلى اكتشافه ولا التوصل إليه" .

١٤ ـ وقال طمسن فى كتاب النشوء : " إنه لا يزال فى أصل الإنسان ، والكون وقدمه أمور كثيرة غير محققة ، ويصعب علينا أن نستكشف الفواعل التى تؤثر فيها " .

١٥ ـ وقال بونر : " إن أحكام العلم ليست نهائية ، فكما نقضنا أحكام السابقين لا يبعد أن يأتى بعدنا أناس ينقضون أحكامنا " .

---

١١ ــ عالم فرنسى معروف ذو مباحث مستفيضة فى الفلسفة الطبيعية .

١٢ ــ هو الأستاذ الإنجليزى فرنسيس ديكن من فلاسفة الطبيعة فى إنجلترا ، ولد سنة ١٥٦١ م وتوفى سنة ١٦٢٦ م ومن آثاره مؤلفات عدة فى مواضع مختلفة .

١٣ ــ هو العالم الأمريكى العصرى الدكتور باتسبان من علماء الماديين المشهورين ، وهو أول من فكر فى شأن التولد الذاتى عملياً ، قال ذلك بمناسبة نشره لتقرير عن تجارب استقرت سبعة أعوام فى شأن التولد الذاتى ، ولعل الذى حمله على ذلك أنه لم يحصل بعد تلك المدة على نتيجة مشكورة بل قابله العلماء بالضجة والاستنكار وقالوا : إن خلايا الأحياء التى توصل إليها لابد أنها وصلت إلى أوانيه المعقمة من الهواء ...إلخ .

١٦ ـ وقال طمسن فى إحدى محاضراته فى الطبيعيات وارتقائها : " إننا لم نصل بعد إلى الغاية القصوى من العلم ، وكلما بلغنا ذروة منه نرى أمامنا أرجاء واسعة كلها فوائد ، ومهما نظرنا إلى الأمام لا نجد الغرض الأخير الذى نسعى إليه ، فلم يزل بيننا وبينهم ذرى كثيرة يصل إليها الباحثون ويرون أن وراءها آمالاً واسعة ، فكلما تقدمنا فى العلم زاد شعورنا بقدر الخالق وعظيم أعماله " انتهى .

ولو أننا أردنا أن نستوعب ما كتبه الفلاسفة فى هذا المعترك لما وسعنا هذا الكتيب ، فإن كثيراً من الأبحاث العلمية التى يرتكن عليها دعاة المادة لا تزال ـ باعترافهم أنفسهم ـ ذات صبغة وقتية ، ولا يزال ما وراء المادة سراً بعيداً عن أفهامهم ، عالياً عن مداركهم ، وتفاعلات المادة تخلبهم بمظاهرها دون أن يتوصلوا إلى سرها ، ولذا فهم يجهلون تمام الجهل ، لأن هناك حاجزاً معنوياً وعقبة كؤوداً ، كما يقول ألفونس إسكيروس : " هى عقبات القصور العقلى ، والعجز عن إدراك كنه الوجود " ، وهذا الحاجز والقصور الطبيعى يمنع عقولهم من التحليق فى سماء الحقيقة واجتلاء معالم الكون ، فهم كالفراشة فى الحجرة ترى الضوء من خلال زجاج النافذة وتسمع الحركة الخارجة وترى المأكولات الشهية ، فتهم بالخروج تدفعها اللذة والشوق لما تراه فى الخارج ، ولكن الألواح الزجاجية الشفافة أو ذلك الحاجز المعنوى الذى لا تشعر بوجوده يمنعها من أن تصل لمرئياتها .

وقال فلامريون فى كتابه " المجهول أو المسائل النفسية " مقدمة ألم فيها بأدواء الجمود العلمى وتاريخ استعصائه عن قبول ما يظن أنه مخالف لما هو عليه تحت عنوان " المنكرون " : " وقد وضع صديقى الحميم أوجين نو فى مقدمة كتابه الذى سماه : أشياء عن العالم الآخر ، قوله : هذا هدية إلى أرواح العلماء الذين ماتوا من حملة الامتيازات والشهادات والتشريفات والأوسمة أولئك العلماء الذين أنكروا دوران الأرض ، وسقوط النيازك ، والكهرباء ، ودورة الدم ، والتطعيم ، وتموجات الضوء ، ومانعة الصواعق ، والداجير يوتيب ، وقوة البخار ، والمحرك

للسفن البخارية والسكك الحديدية ، والاستصباح بالغاز ، والتنويم المغناطيسى ، ثم ما بقى أهديه إلى الأحياء منهم وإلى الذين سيولدون ممن يجرون على خطة من سبقهم فى الحال وسيجرون عليها فى الاستقبال .

إنى أرى من التحقير الشديد لهؤلاء العلماء أن أقلد صديقى أوجين نو وأربأ بنفسى عن كتابة مثل هذا الإهداء فى رأس هذا الكتاب ، ولكنى مع هذا أنبه القارئ إليه ، وأسمح بنشره لأنه لا يخلو من القيمة الفلسفية ، وأضيف إليه متابعاً مؤرخاً لهذه الظواهر بأن هؤلاء العلماء الرجعيين الذين يصادفون فى كل مجال من مجالات العلم والفنون والصنائع والسياسة والإدراة ينتفع بهم من وجهة أنهم يقفون عند حدود يتبين الناظر إليها مسافة التقدم " .

نبغ أوجست كونت وليتريه وأرادا تحديد الطريق النهائى الحسى للعلم ، فأيدا أن لا يسلم الناس إلا بما يرونه بأعينهم ، ويلمسونه بأيديهم ، ويسمعونه بآذانهم وأن لا يحاولوا إدراك ما لا يمكن إدراكه ، وقد صارت هذه قاعدة العلم منذ خمسين سنة : " ولكنا بتحليلنا شهادات حواسنا وجدنا أنها تخدعنا خداعاً تاماً ، فإننا نرى الشمس والقمر والنجوم تدور حولنا ، وهو ضلال مبين ، ونحس بأن الأرض ثابتة ، وهو ضلال مبين أيضاً ، ونرى الشمس تشرق فوق الأفق ، والحال إنها تحته ، ونحس بأجسام صلبة ، ولا يوجد شئ من ذلك ، ونسمع أصواتاً متناسقة ، مع أن الهواء لا يحمل فى الواقع إلا تموجات ساكنة فى ذاتها ، وتعجب من نتائج النور والألوان التى تجلى فى نظرنا المظهر البديع للطبيعة ، والحال أنه لا يوجد ضوء ولا ألوان ، ولكن حركات أثيرية معتمة بتأثيرها على عصبنا البصرى تعطينا شعورات ضوئية ، ونرى أرجلنا تحترق فى النار على غير علم منا ، ونرى أن مستقر الشعور بالاحتراق هو فى مخنا وحده ، وتجدنا نتكلم عن الحرارة والبرودة ، و الحال أنه لا يوجد فى الكون لا حرارة ولا برودة بل حركة فقط .

وبناء على هذا فحواسنا تخدعنا فى حقائق الأشياء ، حتى اعتقدنا أن الشعور والواقع شيئان

مستقلان ، ليس هذا كل ما يقال ، فإن حواسنا الخمس المسكينة ظهر أنها لا تكفى فى تعريفنا بالواقع ، فهى لا تشعرنا إلا بعد قليل من الحركات التى تؤلف حياة الكون .

ولأجل إعطاء القارئ فكرة عن ذلك ، أردد هنا ما كتبته فى كتابى المدعو " لومين " منذ ثلث قرن ، قلت : من آخر درجات إحساسنا بالصوت المدرك بآذاننا فى عدد من الذبذبات تبلغ ٣٦٨٥٠ فى الثانية ، إلى أول درجات شعورنا البصرى المدرك بعيننا فى عدد من الذبذبات تبلغ ٤,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ أربعة كترليون فى الثانية أيضاً ، لا تستطيع أن تدرك شيئاً فيما بين هاتين الدرجتين من الذبذبات ، ولا مشاحة فى أن بينهما مسافة بعيدةً جداً لا تتأثر بذبذباتها حاسة من حواسنا ، فإذا كان فى عود شعورنا أوتار أخرى كعشر أو مائة أو ألف فإن نظام الطبيعة بترتيبها كان يظهر لنا على أتم وأكمل حال ، فحواسنا تخدعنا من جهة ، وشهادتها ناقصة كما رأيت من جهة أخرى ، فليس لدينا ما نفخر به ولا ما يحملنا على وضع فلسفة حسية مزعومة .

نعم يجب علينا أن ننتفع بما عندنا ، فإن العقيدة الدينية تقول للعقل : يا صاحبى الصغير ليس لك إلا مصباح يهديك الطريق ، فأطفئه واتركنى أتولى قيادتك .

ولكن ليس هذا من رأينا ، نعم ليس لنا إلا مصباح ضئيل ، ولكن إطفاءه يفضى إلى العمى المطبق ، فلنجعل مبدأنا أن العقل أو التعقل يجب دائماً وفى كل شئ أن يكون دليلاً لنا ، وليس وراء هذا إلا العدم ، ولكن لا يجوز لنا أن نحصر العلم فى هذه الدائرة الضيقة ، ولا نرجع إلى " كونت " لأنه المؤسس للمذهب العصرى ، ولأنه يعتبر من أكبر العقول فى جيلنا الحاضر ، فقد حدد دائرة علم الفلك على ما كان يعلمه فى زمنه ، وهو الأمر الذى يعتبر من المستحيلات العقلية ، فقال: إننا نعلم أنه تمكن دراسة أشكال الكواكب وأبعادها وحركاتها ، ولكن لا نستطيع أبداً وبأية وسيلة من الوسائل دراسة تركيبها الكيماوى .

وقد توفى هذا الفيلسوف فى سنة ١٨٥٧ أى بعد اكتشاف التحليل الطيفى بخمس سنين ، وهو

الاكتشاف الذى عرفنا بالضبط التركيب الكيماوى للكواكب على حسب ترتيب طبيعتها الكيماوية .

ولقد كان مثله كمثل فلكى القرن السابع عشر الذين كانوا يؤكدون بأنه لا يوجد غير سبع كواكب ، ولم يعلموا أن المجهول بالأمس يكون عين الحقيقة غداً " .

ثم ذكر الأستاذ كلميل فلامريون أن العلماء ليسوا وحدهم المصابين بالجمود أمام كل جديد ، بل يشاركهم الكافة فى ذلك ، والتمس لهم عذراً ثم قال : " إن اكتشاف أشعة رونتجن حديثاً ــ وهو الاستكشاف الذى لم يكن يخطر ببال أحد لغرابته فى ذاته ـ يجب أن يبصرنا بضيق مجال ملاحظاتنا العادية ، فإن الرؤية من خلال الأجسام الكثيفة فى باطن صندوق وتمييز الهيكل العظمى لذراع من خلال اللحم والثياب الكاسية لا شك أنها من الأمور المناقضة لحقائقنا العادية ، هذا المثال هو على التحقيق أنصع دليل على هذه البداهة العلمية ، وهى من الأمور المناقضة للعلم ، والتأكيد بأن الحقائق لا تقف عند حد معارفنا وملاحظتنا " انتهى .

هذه أحكام أساطين علماء المادة على فنهم ، ولا يصح النظر إلى دعاوى من لا يعلم من هذا العلم ما يعلم هؤلاء ، فإن أحكامهم لا تعد إلا كحكم المزارع أو الطبيب على خطط الفنيين الحربيين لا يمكن أن يوقن بها بحال .

المشهورات

قضايا يعترف بها الجمهور ، إما لمصلحة عامة تتعلق بنظام أحوالهم مثل : العدل حسن ، والظلم قبيح ، أو بسبب رقة مثل قولنا : مواساة الفقراء محمودة ، أو بسبب حمية مثل قولنا : كشف العورة عند الناس قبيح .

ويُعرف الفرق بين المشهورات وبين الأوليات بأن الإنسان لو جرد نفسه عن جميع الهيئات النظرية والعملية وقدر أنه خلق دفعة واحدة من غير أن يشاهد أحداً أو يمارس عملاً ، ثم عرض عليه هذه القضايا فإنه لا يحكم بها بل يتوقف فيها ، وأما الأوليات فإنها إذا عرضت عليه فى هذه الحالة لم يتوقف فيها بل يحكم ، ومواد قضايانا التى تنفعنا فى بحثنا إنما هى الدلائل اليقينية التى لا يشوبها احتمال .

وفى هذا اليوم قدمت اللجنة الخاصة بالتحضير نص الدعوة للأمم والشعوب ، وهذا نصها :

دعوة عامة للعالم كله

باسم الحق من حيث هو ندعو كافة العقلاء من كل أمة من أمم العالم ، من أى جنس ومن أى مذهب ، لبحث أصول الخلافات العالمية فى العقائد ، وتحقيقها تحقيقاً علمياً تحليلياً ، مع الاستقلال فى الرأى والنزاهة فى البحث .

وقد اجتمعنا اجتماع محبة وإخاء تحت لواء الإنصاف البحت ، لا صلة بيننا ولا نسب إلا الدليل الواضح والحجة البينة الخالية من أى شائبة من شوائب الاحتمالات العاجلة والآجلة ، وسنتكاتف فى حل مشكلات الخلاف وإرجاعها إلى المبادئ الأولية من الدلائل القطعية على أساس المساواة واتباع ما كان الدليل فى جانبه أياً كان ، ولكل أن يطلع على سجلات أعمالنا ، ولكل أن يوجه إليها أشد سهام النقد ، فإننا مادمنا قد سرنا على اليقينيات فإن البحث النزيه سينصرنا .

وبدأ هذا الاجتماع فى مصر ـــــــ فى يوم ـــــــ ، ومعلوم لدى السادة والسيدات أن

فى مصر من كل دين ومذهب من يأتمنه أهل دينه ومذهبه على الدعوة إليه وبيانه للناس ، ومن دهمائهم وأئمتهم يتكون هذا الاجتماع ، وإنا جميعاً نوجه هذا النداء إليكم ، بل والحق فى ذاته وصوت ضمائركم يشاركنا فى ندائكم إلى ما دعوناكم إليه .

تعلمون جميعاً كم من دماء أريقت ونفوس أزهقت وأعراض هتكت بسبب هذه الخلافات ، ولو ترك كل التعصب لرأيه ولم يقلد إلا الدليل واجتمعوا على الإنصاف لوصلوا إلى الحق المبين .

ألم يذهب قوم كثيرون ـ إن لم يكن الأكثر ـ ضحية التقليد ؟ أليس الأكثرون يضعون على عيون من خلفهم ستاراً سميكاً من وجوب اتباع عقائدهم ولو كانت تخالف الدليل والعلم والفطرة والوجدان ، فيقيدون عقولهم وأفكارهم ويميتون مواهبهم الفطرية ، ويحجبونهم عن التعرف إلى الحقائق وإدراكها بما أوتوا من الدلائل التى غرست فى نفوسهم والتى لا يشكون فى دلالتها بحال ، فحرموا عليهم أن يستقوا من منهل الحقيقة صافياً خالصاً ، ولبسوا عليهم الحق بالباطل .

والغالب من أتباع كل دين ومذهب ينشأ معتنقاً دينه ومذهبه ، لا لشئ إلا لأن أبويه أو بيئته من هذا المذهب ، لا دليل ولا حجة ولا علم ولا يقين .

وقد أجمع العالم أن تحرير الأجسام مما يضرها فضيلة ، وها هى الأمم المتمدينة اجتمعت على تحرير الرقيق ، فلنحرر العقول والقلوب والأرواح من سجن التقليد الأعمى والخبط على غير هدى فى طرق الاستدلال على الحقيقة .

حرام على قلب مبصر لا يعطف على بنى الإنسان ، وقد غمروا بالظلمات وطرحوا فى بحار الشكوك ، فعمل الريب فى أفئدتهم ، فتفسد عليهم أخلاقهم وضمائرهم ومبادئهم حتى يكونوا حرباً على بعضهم ، لا يرقبون مبدأ ولا فضيلة .

هلم يا أنصار الحرية الحقيقية يا من يغار على جمال الحقيقة المظلومة التى هُضم حقها فى

بوادى الأباطيل ، هلم لنلق نور العلم على ليل تلك الشبهات والخلافات حتى ينبلج الحق فلا تستطيع تلك الشكوك أن تعيش فيه بحال ، هلم فنأخذ بيد العقل الإنسانى من عثرته ، هلم إلى فردوس البحث الحر حيث يذوق كل من استعمل مواهبه الحق بنفسه ، ويباشره ويتعهده بذاته لا بعقل غيره .

باسم الحق ندعوكم لنصرته وإيضاحه بما يلائم روح العصر من بيان على قاعدة الاستدلال اليقينى ، ومثله فى الحس كمن يريد أن يبنى بيتاً صحيحاً ، فيجب أن تكون الأحجار سليمة ، والنظام الذى يوضع به مستقيماً ، والصلة التى تربط الأحجار ببعضها وسائر الأدوات والشؤون بريئة من الخلل .

وكما أن البيت إذا اختل أى جزء من مهماته لا يعد بيتاً صحيحاً ، فصرح الدليل إن لم يتركب من أجزاء كلها يقينى والنسبة بينها والنتيجة كذلك لن يقاوم الدهر ، ولابد أن يتقوض وينهار .

ولكل أن يؤصل سيره إلى الحقيقة كما يشاء ، بشرط أن لا يسمح لقلبه أن يخطو خطوة إلا إذا تيقن أنه سائر على صراط البرهان القطعى ، وهذا الذى يصح أن نقبله ، وما سواه لا يؤبه له بحال .

وميعاد انعقاد اجتماعنا بعد عام من تاريخه ـــــــ ويبدأ يوم كذا ـــــــ .

واصطلحنا على أن يكون التخاطب بلغة كذا ـــــــ والمكان ـــــــ .

باسم الحق ندعوكم وهو كفيل بتحية أهله بكل التجلة والاحترام .

حرر فى يوم ـــــــ .

الإمضاءات ـــــــ

ـــــــ

ـــــــ

أخذت الآراء فى توجيه الدعوة إلى العالم بهذه الصورة ، فأجمع الرفاق على استحسانها ، وأفتى أحدهم أن يعطوا مهلة كافية لدرس هذا الموضوع ، على ألا يفتأ كل منهم باذلاً أقصى جهد فى البحث ، وله أن يستشير من شاء ، وأن يجتمع ويقرأ ويسأل كما شاء ، ويجمع على نشرها فى العالم بجميع الوسائل .

فاتفقوا مع عدة شركات للنشر على تعميم هذه الدعوة فى سائر الأرجاء ، فتناقلت الصحف خبر اجتماعهم والمجلات والبرق والتليفونات والنوادى العلمية والأدبية والجامعات والكليات والمدارس والمجتمعات العائلية وغيرها فى مختلف الأقطار ، فى الجزر ، فى أواسط الجبال ، فى الأدغال ، فى البحار ، فى البادية ، فى الحضر فوصل إلى الشيخ إلى الشاب إلى الفتاة فى خدرها لدى العالم ، لدى العامل ، لدى الرئيس ، لدى المرؤوس ، لدى الملوك ، لدى الأمراء والتجار والزراع والملاك والغنى والفقير ، فاجتمعت الآراء والأفكار على تناقل خبر هؤلاء الجماعة .

وظن قوم أن هذا رأى خيالى لا يستطاع تحقيقه ، إذ هم يستبعدون أن يطرح كل العصبية لرأيه ومذهبه ، ورأى آخرون أن الأمر يستحق الاهتمام لذاته ، فلا يصح أن يكون الإنسان غافلاً عن معرفة سر وجوده وحياته ، فما من عاقل إلا تيقظ ، ولا غافل حسن الاستعداد إلا انتبه من غفلته ، وصاروا يبحثون فرادى وجماعات ، ويسترشد كل بصاحبه أو من يعلم أنه يبحث سر هذا الوجود ومنشأه وعلته الأولى ، وعمت الفكرة ذوى العقول الراقية والنفوس الفاضلة ، وأقبلت القلوب على البحث مفعمة سروراً وحبوراً يصحبه جلال مهيب وعظمة رهيبة ، وأبرقوا إلى الجماعة يشكرونهم ويخبرونهم بتلبية الدعوة .

المؤتمر العلمى العالمى للبحث الحر

حان ميعاد انعقاد ذلك المؤتمر العلمى العام ، فكنت ترى تلك الديار تموج بالوفود من مختلف الأقطار ، وكلهم سباق فى ميدان البلاغة فى لغته ، واسع الاطلاع على شؤون العالم ، خصوصاً ما يتعلق منها برأيه ومذهبه ، يجيد اللغة التى اصطلحوا على التخاطب بها ، ويصحبهم تراجمة يجيدون مختلف اللغات ، علماء أمناء ذوى كفاءة شخصية وأخلاقية .

وأناب الوفود أكبرهم سناً فى شكر الجماعة الذين بدأوا بالفكرة ، فرد عليهم نائب عنهم شاكراً لهم إجابة الدعوة ، مثنياً على همتهم واهتمامهم بنصرة الحق .

ثم بدأوا فى البحث فعلاً وانتخبوا هيئة السكرتارية ، وانتخبوا فلاناً مقرراً عاماً للخلاف يلخص المسألة المختلف فيها ويعين الموضوع الذى يُبحث تحت رأى الكل ، فبدأ حديثه :

القضية الكبرى ـ وجود مدبر للكون

إن الخلاف بين الأمم فى الأديان يرجع كله إلى أمر واحد ، متى حل هذا الأمر سهل السير فى سبيل فض الخلافات الأخرى ، وهو :

هل هذا العالم له مدبر يدبره ، وهو الذى سيره على هذا النظام ؟ أو هو مادى آلى بحت وما فيه من نظام ، إنما هو نتيجة صدف راجعة إلى طبيعة خاصة لمبادئه الأولية المادية ، وليس هذا النظام بمقصود ؟

والذين لا يعتقدون وجود مدبر للكون فريقان :

فريق شاك فى وجوده ، يرى أن ذلك لم يثبت لديه بالدلائل التى يعرفها هو ، فيجوز أن يكون فيما لا يعرف دليل أو أدلة تثبت وجوده ، فلا يقطع بطرف من طرفى الاحتمال لا إثباتاً ولا نفياً ، ويترك أمر البت فيه للتطور العلمى فى المستقبل .

والفريق الآخر هم الذين يجزمون بنفى وجود ذلك المدبر .

كما أن الذين يعتقدون بوجود مدبر ليسوا على رأى واحد ، فمنهم من يعتقد فيه أنه ربما

وصف بنحو صفات المادة وإن لم يتفق مع وصفها من كل الوجوه ، وفريق ينفى جواز وصفه بأى صفة من صفاتها ، وخلافات طويلة ليس هذا وقت النظر فيها .

فليبدأ ببسط الأدلة عسى أن يلقى على هذه القضية ـ التى هى أم القضايا ـ نور لا تعيش معه جيوش الريب التى ذكرنا أنها عذاب لا ينبغى لعاقل أن يصبر عليه ، ولا ريب فى أن كل إنسان مطالب أن يخرج من هذه المعركة شريفاً .

وإنى أوكل لرأيكم أمر البدء فى سماع الأدلة من الفريقين ، والقضية فى ذاتها بغض النظر عن أدلة الفريقين يفرض فيها احتمال الوجهين من حيث البحث : النفى والإثبات ، وإن السير الفطرى فى البحث يقضى علينا أن ننظر : هل من مانع يمنع وجود ذلك المدبر ؟ فإن ثبت لدينا أن وجوده مستحيل فقد انتهى البحث ، وإن لم يثبت لدينا استحالته كان وجوده مازال على سبيل الفرض محتملاً ، فيطالب المثبتون لوجوده بإقامة الدليل لإثباته .

فقام ـــــــــ فقال : إما أن يكون هذا المدبر قوة أو مادة ، فإن قلتم : إنه مادة ، فقد اتفقتم معنا أنه لا وجود لغيرها ، وإذ ذاك تكونون قد أثبتم لها العقل والتفكير ، وهذا الذى زدتم به على الماديين ، ولم يقم على ذلك دليل حسى .

وإن قلتم : إنه قوة ، فلا نعرف فيما أدركنا قوة وحدها بغير مادة ، ولا حاجة بنا أن نشرح أن العلم قد توصل فى الأمور الطبيعية إلى هذه النتيجة الكبرى وهى " أن القوة والمادة لا تنفصلان البتة " ، ولا أظنك تستطيع أن تعرفنا بمادة مجردة عن كل قوة أو حركة ، أو تطمع أن تبين لنا قوة أو حركة مجردة عن كل مادة ، فالقوة لا تعرف إلا بالمادة ، والمادة لا تعرف إلا بالقوة ، فلا تدرك الواحدة بدون الأخرى فيما وصلنا إليه .

لنتصور أدق الدقائق المركب الجسم منها خالية من كل قوة ، أى من رباط قوتى الجذب والدفع الذى يتكفل بحفظها ويؤلف صور الأجسام ، ولنفترض أن قوى الألفة قد زالت ، فماذا ينبغى أن تكون النتيجة ؟ ألا يلزم أن تدخل المادة فى عدم لا صورة له ولا يدرك ؟ على أننا لا

نعرف فى عالم الطبيعة جوهراً فرداً بلا قوة ، فهو إنما يظهر بفعل القوة فيه ، تارة على صورة وطوراً على صورة أخرى ، وآونة مركباً من أجزاء متشابهة ، وأخرى من أجزاء متباينة ، ولا يستطيع العقل ـ فيما أدركنا ـ أن يتصور المادة بلا قوة ، فإننا إذا تصورنا مادة أولية مهما كانت فلابد أن تكون دقائقها تحت فعل الجذب والدفع ، وإلا فإنها تتلاشى من ذهننا .

كذلك القول : بقوة بلا مادة ، لم نعرفه ، وإذا كان من المقرر أن القوة لا تقدر أن تظهر إلا بالمادة ، فلا تكون القوة إذاً سوى الصفة المتصلة بالمادة ، وكل صفات المادة كائنة فيها جوهرياً ، إلا أنها قد لا تظهر ، فتكون هاجعة فيها ، أى فى حالة السكون ، فالقوة فى المادة تنبه تنبيهاً ، لا أنها تحل فيها حلولاً جديداً ، فالمغناطيسية مثلاً لا تنتقل من جسم إلى آخر كما ربما يتوهم ، وإنما تهيج فتظهر بتغيير حالة دقائق الجسم المتهيجة فيه ، فهى متصلة بأجزاء الحديد ، وهى فى قضيب ممغنط مثلاً متجمعة خاصة فى المكان الذى لا تظهر فيه أو تظهر فيه قليلاً .

لنتصور إذا أمكن كهربائية أو مغناطيسية بلا الحديد ولا الأجسام التى رأينا ظواهرها فيها ، ولنفرض أيضاً الأجزاء التى نسبها المتبادلة وأوضاعها الجوهرية هى بالحقيقة أسباب الظواهر الكهربائية والمغناطيسية ، فلا يبقى والحالة هذه سوى تجرد لا صورة له فى أذهاننا وعلم لا معنى له بحد نفسه ، وإنما نتذكر به جملة ظواهر خصوصية معلومة ، لأنه لو لم تكن أجزاء قابلة لأن تتكهرب لم يكن كهربائية ، ولما استطعنا بواسطة التجرد وحده أن نعلم عنها شيئاً أو أن نتصورها ، ولم يكن لها وجود لولا وجود هذه الأجزاء .

فكل الأجزاء المسماة عديمة الوزن كالحرارة والكهربائية والنور والمغناطيسية وغيرها ليست شيئاً آخر سوى تغيرات مادية ، أى تغيرات فى وضع الدقائق المؤلفة منها المادة ، فالحرارة والنور والصوت إنما هى اهتزازات إرتجاجية فى الأولين وتموجية فى الأخير ، والظواهر الكهربائية والمغناطيسية تتم بتغيرات نسبية فى أجزاء المادة وجواهرها المفردة .

ولأجل ذلك عرف العلماء القوة بأنها : خاصة من خصائص المادة ، أو هى الحركة ، أو هى

حالة من حالات المادة ، وأنه يستحيل إدراك القوة بلا مادة ، كما أنه يستحيل البصر بلا عين ، أو الفكر بلا دماغ ، أو القول بقوة مفرزة بلا غدة ، أو بقوة انقباضية بلا ليفة عضلية .

فلا شئ أمكنه فى زمان من الأزمنة أن يدلنا على وجود قوة سوى التغيرات التى ندركها فى الأجسام بواسطة حواسنا ، وعلى هذه التغيرات المرتبة حسب نسبها والمسماة بأسماء مختلفة يطلق اسم الجنس " القوة " ، وليس سوى هذه الواسطة لفهم المعنى المراد بهذه اللفظة ، فما هى إذاً النتيجة الكبرى الفلسفية لهذه المعرفة البسيطة الطبيعية ؟ .

وإذا كانت مبادئ العلوم الطبيعية تعلمنا أن المادة لا تعلم إلا بالقوة ، والقوة لا تعلم إلا بالمادة ، وتعلمنا أكثر من ذلك إذ تهمس لنا فى آذاننا : أن لا تصدقوا بقوة خارج المادة ، فهل له بعد ذلك أن يذهب بنا غير هذا المذهب فيفيدنا عن قوة بلا مادة أو مادة بلا قوة ؟ فنسلم لما يقول ويصفق العلم لاكتشافه طرباً ! فيرينا الحرارة والنور والكهربائية وجميع القوى الطبيعية والكيماوية ـ أصلها وفرعها ـ مجردة عن المادة ، والمادة مجردة عن الصفات أو الخصائص أو القوى ـ سمها كما شئت ـ ! وحينئذ ليسقط الخلاف بين العلماء بغلبة الحيويين ، وإن لم يستطع فليسمح لنا بتكرار قولنا : إن المادة الحية إنما تكيفت بالقوة الملازمة للمادة المركبة ، هى ـ أى المادة الحية ـ منها ، باستحالة فى نفس القوة كما حصلت الاستحالة فى نفس المادة .

عدم الإدراك الحسى لا يعتبر دليلاً على عدم وجود المدبر

فقام ـــــــــ وقال :

هذا الذى قاله صاحبنا كله خارج عن موضوع النزاع ، فإنه يتكلم عما وصلنا إليه بحواسنا ، فيقول : ولم يقم على ذلك دليل حسى ـ فلا نعرف فيما أدركنا ـ فيما أدركنا بحواسنا ، ويقول : القوة التى ندركها فى الأجسام بواسطة حواسنا .

وعدم الإدراك الحسى لا يعتبر دليلاً على عدم وجود المدبر ، فكم من أمور لم تدرك بالحس ثم أدركت .

وهل أدركنا كل شئ ؟ أو لا يصح أن يكون هناك حقائق وراء ما أدركنا بحواسنا ؟ والعلم يجزم بأن وراء مداركنا حقائق لم ندركها ، ولذلك يبحث العلماء فى إدراك مساتير الكون ، وما أدركنا إلا رشفة من محيطات الحقائق بشهادة أساطين العلماء ، ومن يتتبع تغيير النظريات العلمية يجزم بذلك ، وكل ما ذكره رفيقنا لا يمنع وجود المدبر .

ونطلب هنا أن نوضح الفرق بين القضايا التى دليلها البرهان الحسى والتى دليلها البرهان العقلى ، سواء قلنا إن الدليل العقلى منتزع من الحسيات أو أن للعقل إدراكاً خاصاً به يحكم عليها وهذا الدليل مركوز فى جبلته ، وننظر قضيتنا هذه من أى نوع منها ، وليس من الإنصاف العلمى أن نطالب بأن تكلف القضايا غير طبيعتها التى هى عليها فى الواقع .

فانتخبت لذلك لجنة تكتب فى ذلك قراراً لترفعه إلى الهيئة العامة بعد أن تدرس كل القضية دراسة وافية ، ثم اجتمعوا وعرض قرار اللجنة على الجميع .

اجتمعت اللجنة التمهيدية وعرض عليها أمر الخلاف فى النفس والروح ، هل هما شئ واحد أو شيئان متغايران ؟ فقررت إحالة البحث على اللجنة المختصة بالخلاف فى الفروع ، ويعد كلا الفريقين من أهل السنة .

اجتمعت اللجنة المختصة بالخلاف فى الفروع التى لا يخرج أحد فيها عن دائرة أهل السنة ، وانتخب السيد فلان لتقرير الخلاف إجمالاً ، فقال :

ـ قال بعض العلماء : النفس طينية نارية ، والروح نورانية روحانية .

ـ وقال بعضهم : الروح لاهوتية ، والنفس ناسوتية والخلق بها ابتلى .

ـ وقالت طائفة : إن الروح غير النفس والنفس غير الروح وقوام النفس بالروح ، والنفس صورة العبد والهوى والشهوة ، والبلاء معجون فيها ، ولا عدو أعدى لابن آدم من نفسه ، والنفس لا تريد إلا الدنيا ولا تحب إلا إياها ، والروح تدعو إلى الآخرة وتؤثرها ، وجعل الهوى تبعاً للنفس ، والشيطان تبع النفس والهوى ، والملك مع العقل والروح والله تعالى يمدها بإلهامه وتوفيقه .

ـ وقال بعضهم : الأرواح من أمر الله أخفى حقيقتها وعلمها عن الخلق .

ـ وقال بعضهم : الأرواح نور من نور الله وحياة من حياة الله .

ثم اختلفوا فى الأرواح هل تموت بموت الأبدان والأنفس أو لا تموت ؟

ـ قالت طائفة : الأرواح لا تموت ولا تبلى .

ـ وقالت جماعة : الأرواح على صور الخلق ، لها أيد وأرجل وأعين وسمع وبصر ولسان .

ـ وقالت طائفة : للمؤمن ثلاثة أرواح ، وللمنافق والكافر روح واحدة .

ـ وقال بعضهم : للأنبياء والصديقين خمس أرواح .

ـ وقال بعضهم : الأرواح روحانية خلقت من الملكوت فإذا صفت رجعت إلى الملكوت .

ـ وقالت فرقة أخرى منهم مقاتل بن سليمان : للإنسان حياة وروح ونفس ، فإذا نام

خرجت نفسه التى يعقل بها الأشياء ولم تفارق الجسد ، بل تخرج كحبل ممتد له شعاع ، فيرى الرؤيا بالنفس التى خرجت منه ، وتبقى الحياة والروح فى الجسد فيه يتقلب ويتنفس ، فإذا حرك رجعت إليه بأسرع من طرفة عين ، وإذا أراد الله عز وجل أن يميته فى المنام أمسك تلك النفس التى خرجت ، وقال أيضاً : إذا نام خرجت نفسه فصعدت إلى فوق ، وإذا رأت الرؤيا رجعت فأخبرت الروح ويخبر الروح القلب فيصبح يعلم أنه قد رأى كيت وكيت .

ـ وقال الجمهور : إن النفس والروح مسماهما واحد ، وهو الأمر المنفوخ فى البدن المدبر له وهو الذى يفارقه بالموت ، وهو الذى يتوفى ويقبض عند الموت .

وحيث أن كل ذلك يجوز عقلاً ، هل ورد فى الشرع القول بأحد هذه الوجوه ؟ وقام السيد فلان وقال :

إن لدينا ما يعين أن الروح المدبرة للبدن المنفوخة فيه هى النفس التى تفارقه بالموت ، قال النبى صلى الله عليه وسلم لما نام عن الصلاة : ((**إن الله قبض أرواحكم حيث شاء وردها حيث شاء ، قال له بلال : يا رسول الله أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك**)) ، وقال تعالى : (**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**)[١٤] ، قال ابن عباس وأكثر المفسرين : يقبضها قبضين قبض الموت وقبض النوم ، ثم فى النوم يقبض التى تموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى حتى يأتى أجلها وقت الموت ، أو أن أرواح الأحياء والأموات تلتقى فى المنام فيتساءلون بينهم ، فترجع روح الحى إلى جسدها فى الدنيا إلى بقية أجلها وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسدها فتحبس .

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا نام : ((**باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فاغفر لها وارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**)) ، وقد ثبت فى الصحيح أن الشهداء جعل الله أرواحهم فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة ثم تأوى إلى قناديل معلقة بالعرش ، وثبت أيضاً بأسانيد

١٤ــ سورة الزمر ، الآية ٤٢ .

صحيحة أن الإنسان إذا قبضت روحه فتقول الملائكة : أخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب ، أخرجى راضية مرضياً عنك ، ويقال : أخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ، أخرجى ساخطة مسخوطاً عليك ، وفى الحديث الآخر ((**نسمة المؤمن طائر تعلق من ثمر الجنة ثم تأوى إلى قناديل معلقة بالعرش**)) ، فسماها نسمة .

وكذلك فى الحديث الصحيح حديث المعراج ((**أن آدم عليه السلام قبل يمينه أسودة وقبل شماله أسودة ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى**)) ، وأن جبريل قال للنبى صلى الله عليه وسلم : " هذه الأسودة نسم بنيه ، عن يمينه السعداء وعن يساره الأشقياء " ، وفى حديث على " والذى فلق الحبة وبرأ النسمة " ، وفيما روى فى الصحيح عن مسلم ((**أن الروح إذا قبض تبعه البصر**)) ورواه ابن ماجه والإمام أحمد بن حنبل عن أم سلمة ، فقد سمى المقبوض وقت الموت ووقت النوم روحاً ونفساً ، وسمى المعروج به إلى السماء روحاً ونفساً ، لكن تسمى نفساً باعتبار تدبيره للبدن وتسمى روحاً باعتبار لطفه ، فإن لفظ الروح يقتضى اللطف ولهذا يسمى الريح روحاً .

روى البخارى فى الأدب وأبو داود والحاكم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم بلفظ : ((**الريح من روح الله تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب ، فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها**)) ، أى من الروح التى خلقها الله ، فإضافة الروح إلى الله إضافة ملك لا إضافة وصف ، إذ كل ما يضاف إلى الله إن كان عيناً قائمة بنفسها فهو ملك له وإن كان صفة قائمة بغيرها ليس لها محل تقوم به فهو صفة لله .

فالأول كقوله : (**نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا**)[١٥] وقوله : (**فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا**)[١٦] وهو جبريل (**فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِياً ، قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِياً ، قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ**

---

١٥ ــ سورة الشمس ، الآية ١٣ .

١٦ ــ سورة مريم ، الآية ١٧ .

لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِياً)[١٧] ، وقال : (**وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا**)[١٨] ، وقال عن آدم : (**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**)[١٩] .

والثانى كقولنا : علم الله وكلام الله وقدرة الله وحياة الله وأمر الله ، لكن قد يعبر بلفظ المصدر عن اسم المفعول فيسمى المعلوم علماً والمقدور قدرةً والمأمور به أمراً والمخلوق بالكلمة كلمةً فيكون ذلك مخلوقاً ، كقوله : (**أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ**)[٢٠] ، وقوله : (**إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**)[٢١] ، وقوله : (**إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ**)[٢٢] ، ومن هذا الباب قوله : ((**إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، أنزل منها رحمة واحدة وأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة ، فإذا كان يوم القيامة جمع هذه إلى تلك فرحم بها عباده**)) رواه البخارى وغيره عن أبى هريرة بلفظ : قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله سلم يقول : ((**إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذى عند الله من العذاب لم يأمن من النار**)) ، ومنه قوله فى الحديث الصحيح للجنة : ((**أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى**)) ، كما قال للنار : ((**أنت عذابى أعذب بك من أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها**)) .

---

١٧ ــ سورة مريم ، الآيات ١٧ ــ ١٩ .
١٨ ــ سورة التحريم ، الآية ١٢ .
١٩ ــ سورة الحجر ، الآية ٢٩ .
٢٠ ــ سورة النحل ، الآية ١ .
٢١ ــ سورة آل عمران ، الآية ٤٥ .
٢٢ ــ سورة النساء ، الآية ١٧١ .

ولكن لفظ الروح والنفس يعبر بهما عن عدة معان ، فيراد بالروح الهواء الخارج من البدن والهواء الداخل فيه ، ويراد بالروح البخار الخارج من تجويف القلب من سويداه السارى فى العروق وهو الذى تسميه الأطباء الروح ويسمى الروح الحيوانى ، فهذان المعنيان غير الروح التى تفارق بالموت التى هى النفس ، ويراد بنفس الشئ ذاته وعينه كما يقال : رأيت زيداً نفسه وعينه ، وقد قال تعالى : (**تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ**)[٢٣] ، وقال : (**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**)[٢٤] ، وقال تعالى : (**وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ**)[٢٥] ، وفى الحديث أنه قال لأم المؤمنين : ((**لقد قلت بعدك أربع كلمات لو وزن بما قلتيه لوزنتهن ، سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله مداد كلماته**)) الحديث فى صحيح مسلم وغيره بألفاظ مختلفة .

وفى الحديث الصحيح الإلهى عن النبى صلى الله عليه وسلم : ((**يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى ، إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم**)) الحديث فى صحيح البخارى وغيره مطول وما ذكر مختصر منه .

فهذه المواضع المراد فيها بلفظ النفس عند جمهور العلماء الله نفسه التى هى ذاته المتصفة بصفاته ، ليس المراد بها ذاتاً منفكة عن الصفات ولا المراد بها صفة للذات ، وطائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات ، كما يظن طائفة أنها الذات المجردة عن الصفات ، وكلا القولين خطأ .

وقد يراد بلفظ النفس الدم الذى يكون فى الحيوان كقول الفقهاء : " ما له نفس سائلة وما ليس له نفس سائلة " ، ومنه يقال نفست المرأة إذا حاضت ، ونفست إذا نفسها ولدها ومنه قيل النفساء ، ومنه قول الشاعر :

---

٢٣ ــ سورة المائدة ، الآية ١١٦ .
٢٤ ــ سورة الأنعام ، الآية ٥٤ .
٢٥ ــ سورة آل عمران ، الآية ٢٨ .

تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل

فهذان المعنيان بالنفس ليسا هما معنى الروح ، ويراد بالنفس عند كثير من المتأخرين صفاتها المذمومة فيقال : فلان له نفس ، ويقال : اترك نفسك : ومنه قول أبى مرثد : " رأيت رب العزة فى المنام فقلت : أى رب كيف الطريق إليك ؟ فقال : اترك نفسك " ، ومعلوم أنه لا يترك ذاته وإنما يترك هواها وأفعالها المذمومة ، ومثل هذا كثير فى الكلام ، يقال : فلان له لسان فلان له يد طويلة فلان له قلب ، يراد بذلك لسان ناطق ويد عاملة صانعة وقلب حى عارف بالحق مريد له ، قال تعالى : (**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**)[٢٦] ، كذلك النفس لما كانت حال تعلقها بالبدن يكثر عليها اتباع هواها صار لفظ " النفس " يعبر به عن النفس المتبعة لهواها أو عن اتباعها الهوى ، بخلاف لفظ " الروح " فإنها لا يعبر بها عن ذلك إذا كان لفظ " الروح " ليس هو باعتبار مدبرها للبدن .

ويقال النفوس ثلاثة أنواع : وهى النفس الأمارة بالسوء التى يغلب عليها اتباع هواها بفعل الذنوب والمعاصى ، والنفس اللوامة وهى التى تذنب وتتوب فمنها خير وشر لكن إذا فعلت الشر تابت وأنابت فتسمى لوامة لأنها تلوم صاحبها على الذنوب ولأنها تتلوم أى تتردد بين الخير والشر ، والنفس المطمئنة وهى التى تحب الخير والحسنات وتريده وتبغض الشر والسيئات وتكره ذلك وقد صار ذلك لها خلقاً وعادة وملكة ، فهذه صفات وأحوال لذاتٍ واحدة ، وإلا فالنفس التى لكل إنسان هى نفس واحدة ، وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه .

وقد قال طائفة من المتفلسفة الأطباء : إن النفوس ثلاثة ، نباتية محلها الكبد ، وحيوانية محلها القلب ، وناطقية محلها الدماغ ، وهذا إن أرادوا به أنها ثلاثة قوى تتعلق بهذه الأعضاء فهذا مسلم ، وإن أرادوا أنها ثلاثة أعيان قائمة بأنفسها فهذا غلط بين ، فالروح التى تتوفى وتقبض هى روح واحدة وهى النفس ، وأما ما يؤيد الله به أولياءه من الروح فهى روح أخرى غير هذه

---

٢٦ ــ سورة ق ، الآية ٣٧ .

الروح كما قال تعالى : (**أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ**)[٢٧] ، وكذلك الروح التى أيد بها روحه المسيح ابن مريم كما قال تعالى : (**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القُدُسِ**)[٢٨] .

وكذلك الروح التى يلقيها على من يشاء من عباده هى غير الروح التى فى البدن ، وأما القوى التى فى البدن فإنها تسمى أيضاً أرواحاً ، فيقال : الروح الباصر والروح السامع والروح الشام ، فهذه الأرواح قوى مودعة فى الأبدان تموت بموت الأبدان وهى غير الروح التى لا تموت بموت البدن ولا تبلى كما يبلى .

ويطلق الروح على أخص من هذا كله وهو قوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته ، ونسبة هذه إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن فإذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحه ، وهى الروح التى يؤيد بها أهل ولايته وطاعته ، ولهذا يقول الناس : فلان فيه روح وفلان ما فيه روح وهو بوٌّ وهو قصبة فارغة ونحو ذلك ، فللعلم روح وللإحسان روح وللإخلاص روح وللمحبة والإنابة روح وللتوكل وللصدق روح ، والناس متفاوتون فى هذه الأرواح أعظم تفاوت فمنهم من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانياً ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضياً بهيمياً ، والله المستعان .

---

٢٧ ــ سورة المجادلة ، الآية ٢٢ .

٢٨ ــ سورة المائدة ، الآية ١١٠ .

بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل وما هو المراد بهذه الأسامى[٢٩]

أعلم أن هذه الأسماء الأربعة تستعمل فى هذه الأبواب ، ويقل فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامى واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها ، وأكثر الأغاليط منشأها الجهل بمعنى هذه الأسامى واشتراكها بين مسميات مختلفة ، ونحن نشرح فى معنى هذه الأسامى ما يتعلق بفرضنا .

ـ اللفظ الأول : لفظ القلب وهو يطلق لمعنيين أحدهما اللحم الصنوبرى الشكل المودع فى الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم مخصوص وفى باطنه تجويف وفى ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه ، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته إذ يتعلق به غرض الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية ، وهذا القلب موجود للبهائم بل هو موجود للميت ، ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب لم نعن به ذلك فإنه قطعة لحم لا قدر له وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلاً عن الآدميين .

والمعنى الثانى هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق ، وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسان ، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب ، ولها علاقة مع القلب الجسمانى ، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق فى إدراك وجه علاقته فإن تعلقه به يضاهى تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان ، وشرح ذلك مما نتوقاه لمعنيين أحدهما أنه متعلق بعلوم المكاشفة وليس غرضنا من هذا الكتاب إلا علوم المعاملة ، والثانى أن تحقيقه يستدعى إفشاء سر الروح وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس لغيره أن يتكلم فيه ، والمقصود أنا إذا أطلقنا لفظ القلب فى هذا الكتاب أردنا به هذه اللطيفة ، وغرضنا ذكر أوصافها وأحوالها لا ذكر حقيقتها فى ذاتها ، وعلم المعاملة يفتقر إلى معرفة صفاتها وأحوالها

---

٢٩ ــ أوردنا هذا الجزء من كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى ، كتاب شرح عجائب القلب من ربع المهلكات ، (أحمد محمد الحافظ) .

ولا يفتقر إلى ذكر حقيقتها .

ـ اللفظ الثانى : الروح وهو أيضاً يطلق فيما يتعلق بجنس غرضنا لمعنيين أحدهما جنس لطيف منبعه تجويف القلب الجسمانى فينشر بواسطة العروق والضوارب إلى سائر أجزاء البدن ، وجريانه فى البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهى فيضان النور من السراج الذى يدار فى زوايا البيت فإنه لا ينتهى إلى جزء من البيت إلا ويستنير به ، والحياة مثالها النور الحاصل فى الحيطان والروح مثالها السراج ، وسريان الروح وحركته فى الباطن مثال حركة السراج فى جوانب البيت بتحريك محركه ، والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب وليس شرحه من غرضنا إذا المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان ، فأما غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساقوا إلى جوار رب العالمين فليس يتعلق بشرح هذه الروح أصلاً .

المعنى الثانى هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان وهو الذى شرحناه فى أحد معانى القلب وهو الذى أراده الله تعالى بقوله : (**قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**)[٣٠] ، وهو أمر عجيب ربانى تعجز أقصر العقول والأفهام عن درك حقيقته .

ـ اللفظ الثالث : النفس وهو أيضاً مشترك بين معان ، ويتعلق بفرضنا منه معنيان أحدهما أنه يراد به المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان على ما سيأتى شرحه ، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان ، فيقولون : لابد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام : ((**أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك**)) .

المعنى الثانى هى اللطيفة التى ذكرناها التى هى الإنسان بالحقيقة ، وهى نفس الإنسان وذاته ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة ، قال الله تعالى فى مثلها : (**يَا**

٣٠ ــ سورة الإسراء ، الآية ٨٥ .

أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً)[٣١] .

والنفس بالمعنى الأول لا يتصور رجوعها إلى الله تعالى فإنها مبعدة عن الله وهى من حزب الشيطان وإذاً لم يتم سكونها ، ولكنها إذا صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره فى عبادة مولاه ، قال الله تعالى : (**وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**)[٣٢] ، وإن تركت الاعتراض وأذعنت وأطاعت لمقتضى الشهوات ودواعى الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء ، قال تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام أو امرأة العزيز : (**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**)[٣٣] ، وقد يجوز أن يقال المراد بالأمارة بالسوء هى النفس بالمعنى الأول فإن النفس بالمعنى الأول مذمومة غاية الذم وبالمعنى الثانى محمودة لأنها نفس الإنسان أى ذاته وحقيقته العالمة بالله تعالى وسائر المعلومات .

ـ اللفظ الرابع : العقل وهو أيضاً مشترك لمعان مختلفة ذكرناها فى كتاب العلم ، والمتعلق بغرضنا من جملتها معنيان أحدهما أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذى محله القلب .

والثانى أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب أعنى تلك اللطيفة ، ونحن نعلم أن كل عالم فله فى نفسه وجود هو أصل قائم بنفسه والعلم صفة حالة فيه والصفة غير الموصوف ، والعقل قد يطلق ويراد به صفة العالم وقد يطلق ويراد به محل الإدراك أعنى المدرك وهو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : ((**أول ما خلق الله العقل**))[٣٤] ، فإن العلم عرض لا يتصور أن يكون أول مخلوق بل لابد وأن يكون المحل مخلوقاً قبله أو معه ولأنه لا يمكن الخطاب معه ، وفى الخبر أنه قال له تعالى : " أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ...الحديث " ، فإذاً قد انكشف لك أن معانى هذه الأسماء موجودة ، وهى القلب الجسمانى والروح الجسمانى

---

٣١ ــ سورة الفجر ، الآيات ٢٧ ، ٢٨ .

٣٢ ــ سورة القيامة ، الآية ٢ .

٣٣ ــ سورة يوسف ، الآية ٥٣ .

٣٤ ــ الحديث للطبرانى فى الأوسط من حديث أبى أمامة وأبو نعيم من حديث عائشة بسندين ضعيفين ، وقد ذكره بعضهم فى الموضوعات لكنه ضعيف .

والنفس الشهوانية والعلوم ، فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة ، ومعنى خامس وهى اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان والألفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها ، فالمعانى خمسة والألفاظ أربعة وكل لفظ أطلق المعنيين ، وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها فتراهم يتكلمون فى الخواطر ويقولون : هذا خاطر العقل وهذا خاطر الروح وهذا خاطر القلب وهذا خاطر النفس ، وليس يدرى الناظر اختلاف معانى هذه الأسماء ، ولأجل كشف الغطاء عن ذلك قدمنا شرح هذه الأسامى ، وحيث ورد فى القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به المعنى الذى يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء ، وقد يكنى عنه بالقلب الذى فى الصدر لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب علاقة خاصة فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب فتعلقها الأول بالقلب وكأنه محلها ومملكتها وعالمها ومطيتها ، ولذلك شبه سهل التسترى القلب بالعرش والصدر بالكرسى فقال : القلب هو العرش والصدر هو الكرسى ، ولا يظن به أنه يرى أنه عرش الله وكرسيه فإن ذلك محال ، بل أراد به أنه مملكته والمجرى الأول لتدبيره وتصرفه فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسى بالنسبة إلى الله تعالى ، ولا يستقيم هذا التشبيه أيضاً إلا من بعض الوجوه وشرح ذلك أيضاً لا يليق بفرضنا فلنجاوزه .